يوسف ادريس .. إلى أين ؟

بقلم احمد محمد عطية

« ان الفن في أعمق مستوياته احتجاج على ما هو كائن . ومن هنا بالذات يصبح الفن قضية سياسية . »

« هربرت ماركوز »

- ١ -

يوسف ادريس فنان مصري أصيل . شارك في تغيير وجه القصه المصريه القصيرة في اوائل الخمسينات بادخال البساطة والانسانية التشيكوفيتين الىالقصة المصرية . وفي ذلك الوقتايضا شهد المجتمع المصري تغييرات حاسمة بالغاء معاهدة الاحتلال ثم بقيام الكفاح المسلح ضد الانجليز في قناة السويس وحريق القاهرة في ثورة شعبية عارمة ثم قيام ثوره يوليو ١٩٥٢ وما صاحبها من اجراءات ثورية .

وابتداء من يوسف ادريس اخذت القصة المصرية القصيرة تتناول من الحياة ابسط جزئياتها لتدلي الينا بمفاهيم انسانية تقدمية عامة - كما غمر يوسف ادريس القصة المصرية بلغة حيانية بسيطة مُعبرة حتى سيطرت العامية على الحوار وعلى السرد ايضا في قصصه .

واسهم يوسف ادريس في مجال الرواية بروايات قصيرة اشهرها « الحرام » وهي رواية اجتماعية نقدية تلتقط نماذج معبره عن بؤس الفلاحين الاجراء .

وفي المسرح المصري شارك يوسف ادريس - في فترة تحول كثير من كتاب القصة المصريين الى الكتابة للمسرح - فانتج مسرحيتين هامتين أثارتا جدلا كبيرا هما « الفرافير » و« المهزلةالارضية». كما تفرد بنظرية جديدة في المسرح المصري في مقالات ثلاث نشرها بمجلة « الكاتب » بعنوان « نحو مسرح مصري » وخلص في نظريته الى ان المسرح ليس فنا اوروبيا وانما هو فن مصري له جذور قديمة في حلقات السامر الريفية المصرية .

ولكن يوسفادريس - الذي وصفه الفاص السوفييتي « يوري ناجيبين » بانه فنان اصيل وشريف يكشف النقاب بجرأة عن مساوىء هذا المجتمع - تخلى عن اهتماماته بالواقع الاجتماعي المصري واخذ يحلق في آفاق الانسانية عامة بعيدا عن مشاكل التحول الاشتراكي. ذلك واضح في مجموعته القصصية قبل الاخيرة « لغة الآي آي» التي خلت من لغته الحياتية المميزة وبدأ يعزف الحان الغربة والتشاؤم مستخدما الرمزيةبدلا من الواقعية والتشاؤم بدلا من التفاؤل . (راجع مقالنا مع يوسف ادريس من الالتزام الى الحياد والتشاؤم بمجلة « الحرية » اللبنانية اول غشطس (آب) ١٩٦٦) .

وفي المسرح بعد مسرحياته الاجتماعية « جمهورية فرحات »وملك القطن « واللحظة الحرجة » اتجه الى بحث مشاكل انسانية عامة، كمشكلة الحرية ، التي رآها يوسف ادريس - في الفرافير - مفقودة في ظلكافة النظم الانسانية من البدائية الى الاشتراكية، ولكنه ترك باب البحث مفتوحا عن طريق جديد للانسانية . اما في « المهزله الارضيه » التي تتناول مشكلة انسانية اخرى مجردة هي الخير والشر ، فقداصيب بطلها بجنون نتيجة ليأسه المطلق من الوصول الى الحقيقة .

ومن هنا فان يوسف ادريس قد تخلى تقريبا عن الواقع الاجتماعي مجاله الاثير والشهير، واخذ يحلق في آفاق انسانية رحبة، وقدم فنه القصصي والمسرحي تجريدا فكريا بعيدا عن الواقعالمحلي الذي يشهد اخطر فترات التحول الاجتماعي .

واستمرارا لهذا الخط البياني الهابط في تخطي مشاكلالواقع الاجتماعي والتطلع الى آفاق انسانية عامة مجردة ،قدم يوسف ادريس اربعة اعمال جديدة . كتاب يحتوي بعض ابطاعاته « بصراحة غير مطلفه » (كتاب الهلال - اكتوبر ١٩٦٨) ومسرحية « المخططين » (مجلة المسرح مايو ١٩٦٩) ومجموعة قصصية « النداهة » (روايات الهلال سبتمبر ١٩٦٩) وروايه « البيضاء » (نشر دار الطليعة ببيروت) وهذه قراءة للاعمال الثلاثة . اما رواية « البيضاء » فهي رواية هابطة شكلا وموضوعا وتستحق مقالامنفردا .

- ٢ -

في كتابه « بصراحةغير مطلفة » يتحدث يوسف ادريس بحبغامر للانسان بغض النظر عن انتماءاته الفكرية او الجنسية .الانسان اينما كان في الشمال او في الجنوب . في الشرق او في الغرب. الانسان وما يجمعه بأخيه الانسان من صلات وتشابه ، فأن تأملالانسان يؤدي بنا الى اكتشاف حقائق غير واردةبالكتب .

وتشغله مسائل الحياة والموت وتجديد الحياة وانسانية الحياة. وهو في كل هذا يحاول خلق نظرة خاصة له في الفن والفكر على حد سواء - فهو يعرف الفن تعريفا واسعا فضفاضا غريبا يتسع لكل شيء كقوله انالفن ليس هو فقط الاشكال الفنية المتعارفعليها، وانما هو كل ما يجعل المستقبل ينفعلانفعالا يشبه انفعاله باي عمل فني . آيات الطبيعة ، جلسة صادقة صريحة مع اصدقاء. عمل قام به احدهم . (ص٨) .

غير ان له نظرات نضالية صائبة كقوله بأن الحياة معركة وليست نزهة او وليمة ، ومن لا يحاربها ميت ، وان ظلتتحمله

الاقـــدام . (ص ٢٢) .

وهكذا فالمشاكل التي تشغل فكـر اديبنا يوسف ادريس في كتابه « بصراحـة غير مطلفـة »كلهـا مشاكل تمس الانسان،كل انسان بلا طبقات او حواجز او معتقدات ، من مرض البلهارسيا الذي يمتص دمـاء فلاحينا الى سهولـة الموت في المدينة الآليـة ،الى البيروقراطية التي تهتم بقدسيـة مواعيـد العمل ولا تهتم بدور المواطـن ضـد الاستعمـار والعـدوان .

ويوسف ادريس لديه حساسية مـن النقـد ويصف النقـاد الشبان بانهم صبية (ص ١٠٩) يكتبـون في غيبة النقاد الكبـار. ونقل نفس المعنى على لسان كاتبنـا الكبيـر نجيب محفوظ وعندمـا سألت نجيب محفوظ عـن مدى صحـة هذا الكلام اكد لـي بانه لم يجـر على لسانه قط . (راجع الآداب عدد يناير ١٩٧٠).

وفي حماسـة بالغـة بعـد نكسة يونيو ١٩٦٧ ـ وفي حمى النقد الذاتي المريرة التي اجتاحت مجتمعنا العربي ـ نجد يوسف ادريس يلغي كل دور للثقافة والفن . « لو كـان ما حدث فيه يونيو قد حدث لشعب آخر لترك كل شيء في حيانه ، الثقافـة والسينما والحـب واي شيء ونذر نفسه لعمليـة اثبات وجـوده اولا كانسـان يستحـق الحياة على ظهر الارض، أولا يستحقها بالمرة ، ان ما حدث ليس امـرا هينـا بالمرة ايهـا السادة . « (ص ١٦٣) ولكـن لعل حماسته تغتفر لـه مبالغاتـه .

ـ ٣ ـ

« المخططين » مسرحيـه فكريـة من ثلاثة فصول وثلاثة مشاهد . في الفصل الاول نتعرف الى شخصيات المسرحيـة الكاريكاتيرية فنعرف انهم جماعـة من النافعيـن على مجتمعهم ، وانهم في انتظـار الاخ الذي ما ان يحضر حتى نبيـن لنـا شخصيته المتسلطة ، فهـو ديكتاتور الجماعـة الآمـر الناهي فيهـا وهو يمارس صنوفا مـن الارهاب الفكري والمادي ضد المعارضين من افراد جماعته ، غير انهم جميعـا يتضاءفون لامره ولتخطيطه ويرتدون جميعا مخططه الموحـد اللـون الابيض والاسـود .

وفي الفصل الثاني نتعرف الى احدى صور الفساد والبيروقراطية في مؤسسة عامة ـ هي مؤسسة السعادة الكبرى ـ حيث النفـاق والغش يجريـان بصورة دائمة . وتخطط الجماعة للسيطرة على هـذه المؤسسة البيروقراطي يعاود نفاقه وانتهازيته ويطلب العمل مع المخططين فيغزو المخططـون كل اقسام المؤسسة ثم يقفز الزعيم الى رئاسـة المؤسسة ويحول اسمهـا الى مؤسسة السعادة الحقيقية ايمـاء الى ان جماعـة المخططيـن انمـا تسعى الى الحقيقـة . ولكـن رئيس المؤسسة البيروقراطي يعاودنفاقه وانتهازيته ويطلب العمل مع المخططين باي ثمـن فيقبله الاخ الزعيم لانه لا غنى عن الانتهازيـة . ويشرع المخططـون في السيطرة على العالم باسره واخضاعه لخططهم وتحويله الى الابيض والاسـود .

وما أن يبدأ الفصل الثالث حتى نجد العالم قد خطط بالفعل وفقا لنظرية الجماعة ويغمر الابيض والاسود حياة الناس وفكرهم .

غير ان الاخ الزعيم يحس بخيبة أمل كبرى ، ذلك انه وجـد العالم بلا سعادة حقيقية في ظل لون واحد ومخطط واحد ، وأيقـن ان السعادة الحقيقية انما تكمن في تعدد الالوان والمخططات ، حتى اذا أراد أن يعلن فكره الجديد للعالم حالت الجماعة الجديدة بينه وبيـن الناس وحولته الى مجرد صورة في اطـار ثابت لا يتحرك . وهكذا تنتهي المسرحية .

هي مسرحية سياسية مبـاشرة ، ومع انها غير محددة المكان أو الزمان ، فان الحوار والارض التي يتنقل عليها أبطال المسرحية يدلنا على وقتنا هذا . أما المشاكل فهي مطروقة ومعروفة ـ النفاق ـ فساد البيروقراطية في القطاع العام ... الخ .

المخططون ـ في رأي يوسف ادريس ـ هم الـذين يريدون أن يحددوا العالم بلا انسانية الى أبيض وأسود بلا معارضة وبلا خلاف . فكل شيء لديهم مخطط ، وجاهز ومحدد . والناس يسيرون كالاشياء وفق التخطيط ، كل وفق ما هو مخطط له .

فوفق نظرية شاملة متكاملة ترنو الى فرض وجودها على العـالم كله تم للاخ الزعيم تنفيذ مخططه بدقـة وتحول الناس جميعا الـى مخططين وفق نظريته الشاملة ولكنه ظل يفتقد السعادة التي طمح اليها من أجل نفسه ومن أجل العالم . فعندما نجح في اخضاع العـالم لنظريته شعر بأن الحياة توقفت لان العقل الانساني توقف عن التقدم والتنـوع والابتكار . فكل الناس مخططـون ، حتى عقولهم مخططة أيضـا .

تغيرت الحقيقة التي سعى اليها وفق مخططه . ان العالم اذا سيطرت عليه فكرة واحدة أصبح كئيبا كريها ، فيجب أن تتنوع الافكار والالوان والرؤى حتى يصبح العالم انسانيا . ليس من الانسانيـة فرض نظرية واحدة على العالم باسره . ان تخطيط العالم وتصنيفه واخضاعه وفقا لنظرية واحدة عمل يبعث على التقزز . يجب أن يترك للناس حرية الاختيار ، كل انسان يختار ويبتكر . يجب على كـل انسان أن يختار لونه . يجب ألا يغمر العـالم لون واحد أو مخطط واحد ، بل كل الالوان وكل الافكار الانسانية من أجل سعادة العالم .

فعندما يبدأ الزعيم الاخ في مناشدة رفاقه أن يعملوا من أجـل تفتح العالم الى ألوان حسب رغبة كل انسان لا يجـد من يسمعه أو يطيعه ، بل يكتشف صعوبة الوصول الى مجلس ادارة العالم . انهم جميعا يعارضون العودة الى فكرة التنوع في الالوان والافكار . فالنظرية المخططة هي التي أعطتهم أهمية لوجودهم وبدون هذه النظرية لا قيمة لهم ، فهم يتمسكون بها وبتخطيط العالم الى أبيض وأسود كقـدر حتمي . ان النظرية الواحدة ألفت عقل العالم ، وحتى الناس الذين أرادوا التغيير خافوه وانتقموا من صاحب النظرية خروجه عليهـا . فتقول المسرحية بأن النظرية الواحدة واللون الواحد يلغيـان العقل الانسانـي والفكـر الانسانـي .

ونقول بأن هذه الفكرة لا تنطبق الا على النظرية الاشتراكيـة ، اذ هي النظريه الانسانية المخططة الشاملة للعالم . وهي التي تطمـح الى أن تصبغ العالم كله بفكرها حتى تنزول الدول والحدود واللغـات ولا يصبح هناك سوى الانسان بلا طبقات ولا صراع طبقي ولا استغلال ولا اضطهاد ولا نهب استعماري . بل عالم انساني واحد وطبقة واحدة ولغة واحدة وفكر واحد . هذا هو حلم الاشتراكية الاسمى الـذي لم يتحقق بعد . فلا يسعنا الا أن نقول بأن هذا النقد انما يوجهـه المسرحية الى الاشتراكية كنظرية شاملة متكاملة ترنو الى سبر غـور العالم واخضاعه لفكرها وحتميتها . ويريد يوسف ادريس القـول بأن الزعيم الاشتراكي المخطط وهؤلاء الناس العاملين من أجل اسعاد العالم وفق نظرية مخططة لا يفعلون ذلك من أجل اسعاد العالم حقـا وانما من أجل اسعاد أنفسهم ، ومن أجل أن يتمتعوا هم بلذة وسعادة الانتصار والسيطرة على العالم . فبعد أن تحققت النظرية ونجحت في العالم بأسره تنبه ضمير المفكر الاول في المسرحية والزعيم الاخ الى ان العالم ليس سعيدا سعادة حقيقية وانهم هم وحـدهم السعداء . حتى لتهدده نظريته بالموت عن طريق أتباعه . ان الزعيم الذي بـدأ بمصادرة حرية الانسان في اختيار ألوانه ومعتقـداته تعرض هو لنفس الحرمان والمصادرة وألغى وجـوده كانسان وأصبح موجودا كصورة وكمخطط فحسب .

وقد أثارت مسرحية يوسف ادريس « المخططين » جدلا فكريا منذ صدورها . فرأى « أمير اسكندر » (مجلة المسرح عدد يونيو ١٩٦٩) في المسرحية عودة الى الدعوة للفردية والليبرالية ومحاولة للرجوع

بالعالم الى مرحلة تخطاها بالاشتراكية .

أما صبري حافظ (مجلة المسرح عدد اغسطس ١٩٦٩) فقد خالف رأي أمير اسكندر قائلا ان يوسف ادريس انما يهاجم النظم الرأسمالية والنظريات الشمولية الرجعية في المجتمعات التي يسيطر عليها حكم الفرد كدول أميركا اللاتينية والدول الامبريالية . وان المسرحية بذلك لا تهاجم الاشتراكية وانما تهاجم كل نظريه شموليه تعادي سعادة البشر . ولكني أميل الى الاخذ برأي أمير اسكندر ، اذ ليست هناك نظريه شمولية تسعى الى تخطيط العالم وفق مذهب وفكرة مخططة سوى الاشتراكية ، الاشتراكية هي التي تسعى الى استيعاب العالم وفق مخطط فكري ومذهبي محدد . أما النظم الفاشية في اميركا اللاتينية فهي نظم فرديه خالية من أي محتوى فكري وهي تتشدق مع الدول الامبريالية بأفكار الحرية الفردية وحريه الاختيار ، وتزعم بأن في الاشتراكية قضاء على حرية التنافس والابتكار .

— ٤ —

« النداهة » هي المدينة ، هي القاهرة ، التي تغفر فاها المليء بأنياب الذئاب لتفترس في وحشيه طهارة القرية وعذريتها .

وقصة « النداهة » قصة بسيطة ، وهي في بساطتها عظيمة لانها عودة الى أسلوب يوسف ادريس الفني بالحياة ، البعيد عن التقعر والتصنع ، والذي وصفه طه حسين من قبل (في مقدمة جمهورية فرحات) بأنه « لا يحب التزيد في القول ولا يألف بهرج الكلام ولن تجد عنده كلمة فلقة عن موضعها أو عبارة الا وهي تؤدي بالضبط ما أرادها على تأديته من المعاني » .

وفكرة القصة مألوفة ومكررة في الشعر الحديث وفي القصة القصيرة الحديثة أيضا . فالفردية هي النقاء والطهر والاستقامة . واذ تفكر « فتحية » بطلة القصة في الزواج من رجل يعيش في المدينة الباهرة أملا في حياة مدنية لامعة فانما تنزلق الى حتفها . ففتحية الفتاة القروية التي رفضت قرويا ميسورا وفضلت عليه « حامد » الذي يعمل بوابا باحدى عمارات القاهرة الشاهقة أملا في التشبه بنساء المدينة اللامعات المصبوغات الباهرات وتطلعا الى حياة أفضل ، تهوي في هاوية المدينة الملوثة . وهذا جزء رهيب للتطلع الطبقي في مجتمع طبقي . ان من يترك طبقته يلقى حتفه ويفقد نصاعته وطهره الى الابد . ولكنها عرفت ان مكانها في المدينة هو ذات مكانها في العمارة في حجرة أسفل السلم وفوقها عالم المدينة كله يأمر ويملك . ومهما حاولت فتحية الانكماش الا أنها ارتمت في أول غاز من المدينة فأسلمت شرفها . وحين تلوثت لم تفلح كل نداءات القرية في تطهيرها . حين هوت لم ترتفع أبدا اذ سقطت الى الابد وفرت من رحلة العودة الى القرية البسيطة الطاهرة . وتلك نقمة الصعود في مجتمع المدينة الطبقي البشع . (وكذلك أيضا كان مصير كثير من أبطال نجيب محفوظ الذين حطمتهم محاولة الصعود الى طبقات أعلى كحسنين في « بداية ونهاية » وحميدة في « زقاق المدق ») .

« النداهة » قصة جميلة وواقعية وغير مباشرة مع كونها مألوفة ومكررة ولكن ما يعيبها ان يوسف ادريس وضع لها نهاية خطابية زاعقة لم يكن لها داع ، لان المباشرة ممجوجة في الفن ولان القصة قالت ما تريده بدون حاجة الى ختام مباشر .

حقا ان الفن العظيم هو احتجاج عظيم كما قال هربرت ماركوز والقصة تقليدية البناء ، فالاحداث مسلسلة كالحكاية ، والحكاية هي صلب القصة ، والسرد هو أساس البناء القصصي ، والوصف هو الصفة الغالبة على السرد ولكنه وصف باطني عميق وليس وصفا سطحيا .

في قصة « مسحوق الهمس » يلجأ يوسف ادريس الى أسلوب التحقيق الصحفي المعتمد على الوصف الثرثار الذي يريد أن يصف كل ما حوله من معالم الحياة في السجن وصفا سطحيا مباشرا .

وحتى تصوير المشاعر الانسانية لبطل القصة السجين الانفرادي الذي يعاني من انعدام الحرية ومن منع الجنس ، حتى هذه المشاعر فانما يتم تصويرها عن طريق الوصف الخارجي والجمل التقريرية المباشرة . والقصه تذكرنا بحوذي تشيكوف الذي مات ابنه الوحيد ولم يجد احدا يحادثه سوى حصانه .

فهنا شاعر سجين اعتاد ان ينسى انسانيته وأن يعيش حياة السجن كرقم في زي السجن ، حتى انتقل الى زنزانة مجاورة لسجن النساء ، فبدأ نوع من الحديث الهامس — عن طريق الدق على الجدار المشترك والتواصل بين الرجال والنساء — والخيالات الجنسية الواسعة لمحتوى كل همسه مسحوقه وكل دفة عبر الجدران الصماء . حتى في السجن المهين للانسانيه لا يفقد الانسان انسانيته وغرائزه وعواطفه، اذ انها تستيقظ عند أول همسه ، غير ان يوسف ادريس يفاجئنا في نهايه القصه بالمفاجآت الوباسانية التي اشتهرت بها القصه المصريه القصيرة في نشأتها ، فيفاجئنا بان الزنزانات المجاورة ليس بها نساء .

وفي هذه القصة — مسحوق الهمس — تنتفي صفة اللغة لدى يوسف ادريس كموصل جيد للمعاني للتحول الى أداة للاستطرادات والوصف التقريري الساذج الممل .

وفي قصه « ما خفي اعظم » التي أفهمها كدعابة خفيفة من يوسف ادريس ، يدخر المؤلف كل طاقاته لمفاجأتنا في آخر القصة بأن زوجة الشيخ « فمر » بطل القصه — التي صمم ألا يرى وجهها أحدا ، وبعد مغامرات عجيبة من اهل القرية ومن الزوجين لم يفلح أحد في كشف وجهها الملتم بالملاءه السوداء — الا ان ازمه ولادة يمر بها الزوجان تكشف فيها الزوجة عن كل جسدها وعن وجهها الذي يدخر لنا المؤلف مفاجأة قبحه في آخر سطور القصة كالفوازير .

أما في قصة « المربعة المقمرة » البالغة القصر (صفحة واحدة صغيرة) فيرتفع أسلوب يوسف ادريس الى درجه عالية من التكثيف الشعري والرمزية . فالمربعة المقمرة هي الحياة التي لا تتغير وهي الممات أيضا .

وتعود نبرة التشاؤم لمصير الانسانية الى فن يوسف ادريس في قصته « معجزة العصر » (وهي قصة قديمة سابقة على النكسة) ، فها هوذا يحدثنا عن شعور جارف يغمره بأن الانسانية ماضية الى نهايتها الابدية .

وباسلوب المقال التقريري الجاف تتحدث هذه القصة في صفحات مطولة عن رجل في حجم نصف عقله هو معجزة العصر . وهذا المخلوق العجيب جعله يوسف ادريس آية من آيات النبوغ . فهو يجتاز سنوات الدراسة في ما يشبه لمح البصر ، وهو يجمع بين النجاح في تفوق ، في أكثر من كليه معا يحصل على أربع عشرة درجة دكتوراه في وقت واحد . حتى لقد بدأ يخترع نظريات فريدة في الفكر الانساني . واختلفت الآراء في تقديره ، ولكن موت السلطان راعيه أذهب عنه كل سلطان وتقزز منه الناس جميعا حتى انتهى الى فراغ يائس . وحاول الانتحار فلم يمت ، فبدأ يتسلل خفية الى حياة الناس ويجري تجاربه . حتى صنع الصواريخ وسفن الفضاء التي مكنته من غزو الكواكب الاخرى ومن خلق الانسان العبقري القادر على كل شيء ، واكتشف علاجا لكل مرض في كوكب آخر مماثل للارض . بل انه تمكن أيضا من علاج مشاكل النظم الاجتماعية الظالمة كالرأسمالية وذلك عن طريق مسحوق كيميائي مع ماء الشرب ، وحل مشاكل مثل الحرب والاستغلال ثم اكتشاف سر الكون . وبالجملة حول مجرى الحياة وأزال منها الفساد والاستغلال والمرض والجهل .

وذهب الى عوالم أخرى وعاد الى الارض ، وبفضله غزت الكواكب الاخرى الارض ، وحين ذاع صيته عاود الناس الاهتمام به ولكنهم

لم يعثروا عليه .

لقد تعمدت أن أقدم ملخصا وافيا لمحتوى هذه القصة القصيرة الطويلة لأبين مدى خوائها . فهي لا تتضمن الا السخرية من عقل الانسان ومن مصير الانسانية ، والتعلق بمعجزة بلهاء عليها أن تصحح الكون . فكل شيء في الحياة الانسانية من مشاكل المرض الى الاستغلال الرأسمالي الى الحروب الى غزو الفضاء ومعرفة سر الكون ، كل ذلك لن يحله الانسان لانه عاجز في مفهوم قصة يوسف ادريس « معجزة العصر » ، وانما سيحل بمعجزة العصر الرجل الذي في حجم نصف عقلة الاصبع .

وهكذا يتأرجح يوسف ادريس في مجموعته القصصية الاخيرة « النداهة » بين الواقعية والرمزية ، بين حنينه للواقع الاجتماعي وبين قلقه من الواقع الانساني العام . وهو في واقعيته انساني متفائل ولكنه في رمزيته متشائم . وكذلك في قصة « النقطة » حيث الانسان في انتظار دائم وترقب وحزن غامر ، وحيث الطريق مجهول والامل غائر ، حيث يدور في فكر يوسف أدريس كل العالم منذ بدء الخليقة في صفحات محدودة .

وقصة « العملية الكبرى » قصة محكمة البناء الفني . فعن طريق « الفلاش باك » والتداعي ينقلنا يوسف ادريس نقلات محكمة ومتوازية بين الواقع والخلفية ويطور حدثه دفعة دفعة بمهارة واتقان رائعين .

اما العملية الكبرى فهي عملية جراحية قصد بها استكشاف نوع ورم خبيث في معدة مريضة ، ثم محاولة استئصال الورم بجبروت شخصي من كبير الاطباء واستهانة منه بالحياة والموت وبالانسان المريض عموما . فمزق شريان السيدة المريضة فغاض الدم أنهارا وبذلك تعرضت المريضة لخطر الموت . وفي حجرة واحدة ضمت السيدة التي تموت والممرضة والطبيب الجراح الشاب دارت فصتنا الحقيقية .

فقد بدا « ان السيدة قد حكم عليها ، هكذا ، بالموت ، وان العملية التي بدأت لعبة واستكشافا قد انقلبت الى مأساة » (ص ١١٩) لان الجراحة في مستشفيات الفقراء تجري كتجارب عليهم استعراضا لمهارة الاطباء دون أي اعتبار آخر لانسانيتهم أو مرضهم . فالجراحة هنا تجري من أجل الجراحة وليس من أجل صحة المريض . هكذا يدرك الطبيب عبد الرؤوف بطل القصة . فيوسف ادريس يدلنا على ان الاستهانة بالمرضى الفقراء ومعاملتهم كحيوانات تجارب أمر مألوف في مستشفيات الفقراء ، ولذا فالعملية الكبرى التي تتحدث عنها القصة ليست هي العملية التي تودي بحياة المريضة بقدر ما هي في ما يجري في حجرة الموت ، الموت الذي يحوم فوق رؤوس الثلاثة ، المريضة والطبيب والممرضة . الموت يهدد الجميع المريض والسليم . وحتى يؤكدا ـ الطبيب والممرضة ـ وجودهما الانساني ، راحا في عناق جياش حميم عنيف عار . وفي لحظة واحدة بدأت السيدة وهي تموت تبتسم لقوة الحياة المتدفقة في المشهد الجنسي الانساني الجاري أمامها .

فالعملية الكبرى هي قصة من قصص الاحتجاج العظيمة ، ففيها نقد واحتجاج على الواقع الاجتماعي المر الذي يحيل المرضى الفقراء الى حيوانات تجارب في المستشفيات المجانية ، فهذه مأساة الطبقية ايضا . وهي احتجاج على أرستقراطية العلم حين يستخدم كفاية أو كوسيلة للترف وللعظمة الارستقراطية وليس كوسيلة لاسعاد البشر .

كما ان للقصة مغزى انسانيا عظيما مفاده انه اذا كان الموت ينتصر على الحياة في كل لحظة ، فان الاصرار على الحياة يجعلها بهيجة ويمكننا من انتزاع الحياة من براثن الموت .

والانسان في آخر قصص يوسف ادريس « دستور يا سيدة » يعاني من الوحدة والغربة كما عانى بطلا القصة ، جدة في الخمسين ، وشاب في الثامنة عشرة ، وفي هذه القصة يختلط الجنس بالامومة ويفسر كل شيء تفسيرا جنسيا فرويديا . فتزول كل العقبات فيما عدا عواطف الامومة وحب الام الارملة لمن في سن حفيدها وحب الشاب اليتيم الصغير لجدته . حب في أعمق أعماقه جنسي . وبنظرة فرويدية يتغلب الجنس على كل مشاعر الامومة والعطف والتقاليد الراسخة . ولكن الجنس يذهب وتبقى الوحدة التي يعانيها الانسان بعد أن يتم مهمته ، فينجب ويخلق أناسا آخرين لهم حيواتهم الخاصة وليس بينهم وبينه الا عواطف المجاملات الواجبة والثقيلة في آن واحد. « انها الوحدة الحقيقية كما لم تتصور وقوعها يوما.. » (ص ١٤٧) .

وبهذه النظرة التشاؤمية لمصير الانسان يختتم يوسف ادريس أحدث مجموعاته القصصية « النداهة » .

وهكذا يتأرجح يوسف ادريس بين التعريفات الواسعة للفن ، وبين الفائه لدور الفن في انطباعاته « بصراحة غير مطلقة » .

بين الايمان بالاشتراكية وبين الدعوة الليبرالية والفردية في مسرحيته « المخططين » .

بين التجريد والرمز وبين الواقعية . بين الفن والمباشرة . بين الاخلاص للواقع الاجتماعي والاحتجاج عليه وبين التطلع الى آفاق عالمية وتخطي مشاكل الواقع المحلي ، بين التفاؤل الواقعي والتشاؤم اللاانساني في أحدث مجموعاته القصصية « النداهة » .

فالى أين يمضي يوسف ادريس ؟!

القاهرة — **احمد محمد عطية**

فارس مدينة القنطرة

مجموعة قصص

بقلم الدكتور

عبد السلام العجيلي

٢٥٠ ق.ل. — صدر حديثا

منشورات دار الآداب